لديهم أسلحة ولديك أزهار يرغبون بالحرب وتأخذهم إلى السلام

25 شاعرا من العالم و100 قصيدة لأجل مانديلا

هالة صلاح الدين

مجسم على الرمل تحية لروح مانديلا من رسام هندي في مدينة بوري

لديهم أسلحة، لديك أزهار.

يرغبون في الترويج للحرب،

لكنك السلام.

* سينان كيجوسوز، تركيا

إن كتاب المختارات الشعرية "تحية لمانديلا: نيلسون مانديلا في الشعر" (2006) الصادر لتكريم مانديلا (1918–2013) في عيد ميلاده الثامن والثمانين ليس مجرد قصائد تحتفي برجل واحد، وإنما قصة متراصة محبوكة على مدار ثلاثين عاما على لسان شعراء من بلاد العالم كافة، تصف بعين الفنان صراع الإنسان في سبيل العدالة والإخاء، صراع قلما ينخرط فيه السياسيون. يشمل الشعراء سياسيين سابقين وفناني راب وشعراء يتقنون الفنون الأدائية، بل وطفل في الثانية عشرة. يتتبعون مساراً فخوراً استهله مانديلا كمدافع صلب عن الحق حتى أواخر أيامه وهو "عجوز جليل" ينطق بالحكمة.

ما كان مصيره واضحاً كل الوضوح على الدوام.

ولكنه ألفى سبيله بدون ذرة من خوف.

كانت أحلامه هي أحلامي وأحلامك.

هيكتور ماوونجا، ناميبيا.

يتفرد الديوان كمثال نادر تختلط فيه الصور البلاغية بالوقائع التاريخية، ويطرح سؤالا: كيف يمكن أن يسرد الشعراء التاريخ؟ وأبرع جوانب هذا الكتاب سطوعا هو كونه مختارات نابعة، رأسا، من معاصريها، بمُكن استغلالها في بيصر الجيل الحالي بمعركة أفريقيا مع التفرقة العنصرية على نحو لا يضجرهم، كما هو الحال في التاريخ المكتوب. إنها مسيرة شكلت العالم أجمع، لا دولة واحدة.

ما هو إلا يوم آخر في الحياة

يا قلب أفريقيا،

لا أطيق انتظارا حتى أبصرك من بعيد

لقد حملت الدرع

لا لتوجه لوما، وإنما لتتفهم

اختبرتك الأيام ووضعت ثقتك

أن في يوم من الأيام

وفي وقت من الأوقات

سوف يعي الرجال.

نشتاق إلى سماع هذه الكلمات من جديد

السلام، التواضع، الوحدة والمصالحة

بين رجال أفريقيا العظماء.

* بروسي نانيومبي، أوغندا

قصص كونية

وهكذا يقص علينا ناشط جنوب أفريقيا دينيس بروتوس وأشار البريطاني روبرت دبريك وكاتب جنوب أفريقيا جيريمي كرونين ظروفا غابة في القسوة وكدحا لا يطيقه بشر عاشه مانديلا مسلوب الحرية – لا الإرادة – في السجن. كما يُبَصرنا شاعر جنوب أفريقيا ارثر نورتجي ببديناميكية السياسة إبان حكم البيض لجنوب أفريقيا، بينما يتدبر شاعر جنوب أفريقيا فازل جوهينيس كيف أسهم الإرهاب والعنف في إشعال مناخ التعصب.

ويصور السياسي كارل نيهاوس وشاعر جزيرة بربادوس كامو براثويت الملابسات الاجتماعية والاضطهاد الذي عاشته الأغلبية الأفريقية.

كلها قصص تمس بصورة أو بأخرى مناضل جنوب أفريقيا الأوجد، وإن تراوحت سياسيا واجتماعيا وعالميا لتسلك سبلا شتى. يكتب شاعر جنوب أفريقيا بونجوموسا دبريك: "بفضلك يمكن للرجل الأسود أن يسير في الشارع بحرية. بفضلك بمقدور الطفل الأسود أن ينال التعليم نفسه الذي يناله الطفل الأبيض. لقد وضعت جنوب أفريقيا وبقية أفريقيا على خريطة العالم. حسبوا أنك ستخرج من سجن "روبين" واهن القوى، لكنك خرجت أقوى وأقوى".

وفي سياق مسيرة مانديلا يصف شاعر جنوب أفريقيا أوزولد ماتشالي تأثير القضاء على الهوية القبلية على بلاده التي كانت تجاهد من أجل مزج الفئات الاجتماعية دون تمييز على حين يسلط الكاتب الأمريكي مايكل سميث وشاعر جنوب أفريقيا بيتر هورن الضوء على الأبعاد العالمية لكفاح مانديلا ويسبغان عليها سياقا، بفسران أيضا كيف تطور هذا الصراع القومي ليصير حملة كونية تتحاز إلى الضعفاء – مقاومة أغلبية محلحونة لأقلية لا ترى فيها إلا السواد.

لعل أجمل قصائد الكتاب هي تلك التي تشدد على تفرد مانديلا كإنسان لا كسياسي، بوصفه رمزا متفردا يكابد جوهر الصراع، على المنابر، وفي السجون، قبل السجن وبعده، وحتى آخر أيامه. فقد عابنت هذه القصائد حال دولة أورثها مانديلا لشباب الجيل، بكل معضلاتها وإخفاقاتها وإن تبدت دولة مختلفة الآن تمام الاختلاف عن تلك التي سلبته حريته.

إرث عالم

تتسطع كل هذه الأفكار في إطار شعري تتعدد حبكاته وتقنياته، وكل واحدة منها تتحدى وتُشَرِّح العنصرية كما شهدها مانديلا في مستهل شبابه، والعنصرية التي سحقها في عقر داره، وتلك الواهية المتخلفة حتى الآن في وطنه الأم.

وهكذا فيما تنحني هذه المختارات تكريما مستحقًا لمانديلا نفسه، تشتمل على المزيد: إنها نافذة شعرية تطل على تاريخ جنوب أفريقيا منذ مستهل العقد السابع من القرن العشرين وحتى الوقت الحالي، تنير إرثا عرّف دولة وعالما، لا رجل بمفرده.

لقد سجنوا صقرا في قفص متربع بالقسوة

ومع ذلك أقتاتت الحمامة على الوحدة.

وبزغت

طرحت السلطة جانبا لتصير موسى

وبرقةٍ أظهرتِ لنا الحق

مانديلا، مانديلا، لقد احتجنا إليك

لم لم يدركوا من كنت؟

* جيه ركينار، برمودا

سنوات روبين

استلهم شعراء القصائد الأولى أبياتهم من سنوات السجن الطويلة في جزيرة روبين.

من بين أولى القصائد قصيدة "واشاهدها في مانديلا" (1974) بقلم شاعر جنوب أفريقيا جون ماتشيكيزا، وقد خطها في أحلك أيام مانديلا. "لقد كنا في انتظار هذه اللحظة طيلة حياتنا.

ذلك كل ما يسعني قوله. طيلة حياتنا."

هكذا عبّر ماتشيكيزا عن لحظة خروج نيلسون مانديلا من السجن.

لا من أجل أمن يكتنف الصمت

فتح هذا الرجل ذراعيه للقيادة.

تتعلق قوة كلماته في الهواء

كما تظل قوة عينيه فوق السماء؛

تمر سنوات الانتظار نافذ الصبر

بينما يتحرق هذا الرجل ليبدد عن الهواء

الدخان.

ثمة نار تنشب هنا،

ولا سجن بمقدوره

أن يخمدها في هذا الرجل؛

وأشاهدها في مانديلا.

إرثنا الأبدي

ويوم تحرر المناضل من أسره في فبراير 1990، كتب شاعر جنوب أفريقيا كريس مان في قصيدة "مُرُوض" (1992):

تبزغ إلى المِنصة،

قصيا كما الإله، كما الرمز المقدس،

ترفع ذراعيك، فنرسل هديرا

في اهتياج يشي بالافتتان.

لم يغض محرر الكتاب، الناقد ريتشارد بارتليت، النظر عن قصائد تنتقد رجلاً يُنظر إليه الكثيرون نظرتهم إلى بطل. من بينها قصيدة لأحد مؤيدي سياسة التمييز العنصري، يبث سمومه تجاه الرجل قائلاً إنه "نال ما استحقه" بيد أن أغلب القصائد تجري حواراً حميماً مع مانديلا نفسه. يتخيل الشاعر النيجيري جيكوو إكيمي في قصيدته "عندما يرحل مانديلا" (2004) الحياة بعد رحيل أيقونة هيمنت على تاريخ جنوب أفريقيا لما يربو على نصف قرن:

عندما ترحل أيها الجندي المختار في

كفاح الأحلام

لن تحجب دموعنا رحلتك العائدة إلى

الوطن.

عندما ترحل يا مانديلا سوف يصبح نبلك

إرثنا الأبدي

وسوف تستمر في حبك، هذه الأرض التي

تحبها من كل قلبك،

سوف نتتبع المسيرة الطويلة المهيبة

وسوف تصير مسيرتك الشجاعة صليبنا

وراعينا.

حصى الطريق

ويخاطب دامياو فاز دالمبدا، رئيس وزراء جمهورية ساوتومي وبرنسيب الديمقراطي، مانديلا في قصيدته "قصيدة إلى الريح الجنوبية" (1987) مستلهماً حياته وتجربته:

ويحذو الرجال حذو خطواتهم

يحصون في صبر حصى الطريق

طريق طويلة تغلف

فيها روح التمرد

شأنها شأن نور التألق الملهم

تتعالى ضد القدر الباهت

المفروض على ملهمك المشوّه

منذ أغلق السجان باب السجن في وجه أشهر سجناء الإنسانية خاض الشعراء المعركة – لا للدعوة إلى حرية فرد، وإنما حرية شعب برمته، عرق بالكامل، إنسانية تلطخت بدنس العنصرية.

يضم كتاب "تحية لمانديلا: نيلسون مانديلا في الشعر" قرابة 100 قصيدة خطها كُتاب من 25 دولة.

وهكذا أصبحت أقلام أجيال من الشعراء – من بينهم الشاعر الأيرلندي شيموس هيني والنيجيري وول سوينكا – أسلحة سياسية بدون التضحية بملكاتهم الشعرية وقدرتهم على رسم الأحلام، "كلي الوجود كضوء الشمس، صلب كما الصخرة، مرن كعود القصب" (إيفا ماتيو، اسبانيا).

ومن خلال إيماءات من الإبداع المفعم بالعاطفة تتوالى قصائد تعكس تأثير مانديلا الساحق وتُبرز عاطفة نبعت منه وتحققي بتراث مكافحي العنصرية، لكي تُسجل بحس الفنان كيف بات مانديلا أيقونة من أيقونات الغبن العنصري – وكذلك تجسيدا للأمل والحياة.

جمال القصاص

لص نساء الشرفات

لم يكتب الشاعر جمال القصاص بحرقة والم دوما، وكان الشعر نوع من التطهر بالألم. فضاؤه مملوء بالحزن، بينما تومض لحظات الفرح خلسة، وكأنها تنوء خارج السياق، أو زمن هارب في الزمن، على الرغم من أنه على النقيض تماما في معايشة الواقع والحياة، له آراء صريحة في أبناء جيله من شعراء السبعينيات، يصف نفسه دائما بأنه لص شعر. وقال أنه عندما كان يكتب ديوانه "نساء الشرفات" كتبه بهذه الروح من التلصص.. واجهناه على "كرسي الاعتراف" بتساؤلات اتهامية.. فكان هذا الحوار.

قال القصاص "اكتب ما أحس به، ما أعيشه بالفعل، ما تلامسه روحي وعيناي بمحبة خالصة، أو حتى معطوبة.. المهم ألا تفسد وتصل هذه المحبة إلى حد الكراهية.. حينئذ يتساوى فعل الوجود والعدم على حافة القصيدة، فانصرف لأمور أخرى، في المطبخ، أو في الشارع، أو اطارد إوزة عرجاء في الحديقة، أو أذهب لمواساة موجة علق قلبها في مخالب الصخور، مشكلتي أنني التصق بنفسي في لحظة الكتابة إلى حد الاعتصار أحيانا.

وهذا مؤلم لكائنين "الذات وفعل الكتابة" يرفضان الراحة على جسر ما، حتما سيصل بينهما، ربما ببطء أسرع وأرق من دفقة الشهوة الأولى".

وأضاف "هناك دائما صراع خفي بين مسطح الورقة البيضاء، ورغبتي في أن أنتهك حيادية هذا البياض بشكل خاطف ومباغت في لحظة الكتابة، كأن الورقة ستهرب من يدي، قبل أن أثبّت شكل وجودي فيها، أو كأنها عصية عن التواؤم مع هذا الوجود.

من هنا تأتي الحرقة والألم فالكتابة صراع وجود، أريده أن يتشكل وفق ما أراي وما أحس، وليس ووفق ما هو كائن بالفعل، أو ما يراه الآخرون..

أضف على ذلك أنني لا أحب اللون الأبيض ولا يوجد صريحا ضمن ملابسي، فدائما تقطعه وتشوشر عليه ألوان أخرى، رغم أنه على مستوى المظهر يزيدني بهاء وجمالا".

وراى القصاص أن الحياة مبنية على المنطق والحسابات، ثمة نزعة برجماتية تحكمها، لكنه أكد أنه غالبا ما يدع الحياة تعيشه وتتنفسه على فطرتها وسجيتها.

وتذكر "في مشواري الدراسي ومنذ الخطوات الأولى كنت أكره الحساب والرياضيات ولغة الأرقام بشكل عام، أحب الرسم والموسيقى والأدب، أحب ما يجذب الخيال، ويلعب على مساحة الوجدان، وليس على بديهيات العقل ومغالبه المربكة.. ألم أقل في شعري في ديوان "شمس الرخام":

دار الزمان على سوابق عهده..
والحرف عرّج واستوى في ضدّه
لا تستقمْ أنت الغنيُّ بفقره..
والخيط وهما يستطيل بمده..

ثم يطاردني الهاجس نفسه، بتنويعة أخرى في اللحن فاكتب في ديواني "السحابة التي في المرآة" هذه الومضة الخاطفة:

"خطوة.. خطوة هنا أو خطوة هناك
كل الحسابات بلا ثمن
لكنني دائما أعود إلى نفس النقطة
في نفس الكراس.

ثم يعود اللحن نفسه في ديواني "كولمبس على الحافة"، لكن بوجع خاص، وفي ظل لطشة عاطفية حارقة:

الخسارة مكسبي الوحيد
حقيبة عمري.

وهكذا، في كل شعري يتناثر الحزن، وكأنه الوعاء الذي يصون هباء الروح والجسد معا، وفي الوقت نفسه يطهرهما مما علق بهما من شوائب الحياة..

بينما يظل الفرح هو الإمكانية الأبعد، هو الحلم الهارب في الزمن، أو العكس صحيح. ربما حين أنبش في دفتر طفولتي، يبرز موت أمي وأنا صغير على أعتاب السنوات التسع، كشارة حزن، أو دمعة محبوسة، لم أستطع أن أطرفها آنذاك، فظلت حبيسة، تتسع وتتجدد نفسها في دورة الحياة والقصيدة معا".

وانتقد القصاص جيل السبعينات الذي ينتمي إليه من زاوية خاصة "طالما خشيت من جيلي الذي نشأ أغلبه في حضن تكتلات وجماعات شعرية، أن تنمحي وتذوب وتتشوه الفروق والسمات الجمالية بين شاعر وآخر، وتصبح إزاء نص واحد يراكم التشابه والتماثل والتكرار، وليس المغايرة والتجاوز والتخطي.

وقد انعكس كل هذا على النظر النقدي لهذا الجيل، حيث ظل لسنوات كثيرة يتم تناوله نقديا بمنطق تلك الكتلة، وكعادة العمل داخل كتلة هناك منطقة السطح الأكثر بروزا ولمعانا وضجيجا، ومنطقة الظل، التي تنفر من الأضواء والثرثرة، وشاعريا انحزت إلى منطقة الظل، لأوفر نوعا من الهدوء والنمو الطبيعي لتجربتي، وحتى يمكنني مراقبتها بحياد تام، ولم يعيقني "هذا عن أن أكون أساسيا في بؤرة العمل داخل الكتلة..

وحين انفضت الكتلة وذهب كل شاعر إلى حال سبيله، اكتشفت أنني كنت على صواب، وأنني قصيدتي تشبهني، ولا يمكن أن تخونني، وأنني أدرك بمشاكسة طفل، مناطق النقص والإضافة فيها، والأهم من ذلك أنني أدركت أن التمرد على نموذج، أو على لحظة شعرية محددة، سيظل محفوفا دوما بالضجيج وروح الشعار، والطفو على السطح، بينما المياه الصافية الحقيقية تجري في الأعماق.

ولعل هذا ما يفسر تباينات شعراء جيلي، فبعضهم لا يزال يراوح مكانه، ينظر إلى قصيدة النثر من منظور الطبقة الأدنى في الشعر، وبعضهم يتمسح فيها بالقة مصطنعة ومستعارة، والبعض الآخر يسجنها في عباءة "خبرته مع قصيدة التفعيلة، والحق أن قصيدة النثر هي فضاء الشعر الحر، وهو فضاء صعب ومراوغ، لأنه يستغرقك في لحظة الكتابة، ويسكنك روحا وجسدا معا، ويستوجب طاقة مغايرة ويقظة رهيفة في الالتقاط وقدرة لا تحد في الكشف وتفجير الأسئلة، وخلق الشعر من عثرات الحياة العادية المألوفة".

ولفت القصاص إلى أنه في لحظات كثيرة بينما يكتب ديوانه "نساء الشرفات" كان يحس بأنه لص يتخفى وراء قناع الكتابة، وأنه لا سبيل لكسر هذا القناع سوى أن التصق في الشرفة بجسده ويترك روحه على العتبات تلتقط الرتوش "أحيانا كنت أحس بأن الشرفة مجرد لون، مجرد خط، مجرد مساحة، ومهمتي أن أحيّد الفراغ، أن أحرره من كثافة الألوان والخطوط، تارة بقوة الظل، وأخرى بقوة الكشط حتى يشف السطح عن القه وعمقه الخاص.

وكثيرا كنت أتخيل- تحت حمى الكتابة- أن ثمة لصا آخر يبادلني القناع نفسه، وأنه ينعس تحت الوسادة، ويشد من على جسدي أطراف الملاءة، فاصحو مذعورا من نومي وأهرع إلى شرفة بيتي لأكتشف أن الشرفات لا تزال كما هي، منتظرة تلصصي بنزق "أعلى من نزق العشيقة".

* محمد الحمامصي

بريشة جمال الجرّاح